

إن صوتك لم يوقظني وحدي وإنما أيقظ أمنا فما هي هذه تفيق وما هي هذه تسأل أخاها: أوفعلتها يا ناصر؟! وما هي هذه تغرق في بكائها السخيف بكاء الأنثى المستسلمة التي لا تملك حولاً ولا طولاً إلا سفح الدموع. ويليك أيتها البائسة! إنك لتستطيعين أن تسفحي دموعك إلى آخر الدهر فلن تغسلي قطرة من هذا الدم الذكي، ويليك أيتها الأم الآثمة! إنك لن تستطيعي أن تردي نفسك إلى البراءة والأمن.

نعم! إن صوتك أيها الطائر العزيز قد أيقظني وأيقظ هذه الأم المجرمة التي سفكت دم ابنتها بيد أخيها، وأيقظ هذا المجرم فنبهه إلى أن جريمته يجب أن تُخفى، وإلى أن آثار إثمه يجب أن تزول. ولكنه لم يوقظ هنادي وما كان ينبغي له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقوَّ ومهما يلح فلن يستطيع أن ينفذ من أستار الموت. إنك لترسل صيحاتك متصلة متلاحقة وإني لأنشط مثلك للصياح، وإن صوتينا ليملاّن الفضاء العريض لا يصرفان هذا الرجل عما هو مقبل عليه من إخفاء هذا الجسم في هذه الحفرة التي لم يفارقنا آخر النهار إلا ليهيئها.

لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله، واستنفدت هنادي حظها من الحياة، وماتت لأن شاباً أثماً أغواها ولأنها لم تُحسن أن تدفع عن نفسها غوايته.

إن صوتك لينبعث في الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث، وإن صوتي لينبعث في الفضاء داعياً وليس من يجيب، وإن هذا الرجل المجرم ليفرغ من إخفاء جريمته ومحو آثارها ثم يلتفت إلى هذه المرأة وإليَّ ويقول في صوت متهدج فيه الرعب وفيه الخوف وفيه النذير: هلم فقد آن أن نرتحل، فإذا أبطأنا عليه ردد هذه الكلمات في صوت أشد ترويعاً وأكثر امتلاء بالنذير، ثم يمثل أمامنا ويقول: تعلمان والله أن هنادي ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا الوباء الذي ألمَّ بها منذ أسابيع!

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العزيز قليلاً قليلاً، وانقطع عني صوت خالي، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسللت من الأشياء كلها، وإني لأراني أمرض في بيت خشن حقير.